صبر ايوب

﴿ حديث خرافة — بقلم مالك ﴾

* * *

عاد ايوب فعاش على الارض مرة ثانية في سوريا

وكان ايوب رجلاً باراً ، كاملاً ، مستقيماً ، يتقي الله ، ويحيد عن الشر . وله بنون وبنات واموال وارزاق باركها الله . بيته كنأس طافحة بالخيرات والبهاء . يحترمه الناس طراً ويهاب جانبه الكبير والصغير حتى رجال الحكومة .

ولكن ابليس عدو البشر وصديق الشر حسد سعادة ايوب مرة أخرى . وكدره تذكار اخفاقه السابق فعزم على ان يكيد لايوب كيداً . فلما جاء بنو الله للمثول امام الرب جاء ابليس ووقف في وسطهم . فقال له العلي

— من اين جئت ؟ فاجاب ابليس

— قد جئت من الارض والجولان فيها . وقد خصصت قسماً كبيراً من وقتي للاقامة في سوريا لان مناخها يطيب لي . فعبس الرب وقال

— انا عالم بذلك حق العلم ، فاني كلما نظرت من علو سمائي الى بني الانسان الاُلى قسموا الارض ممالك واقطاراً فيما بينهم لا أرى اتعس من هذا القطر الصغير ففيه التعصب الديني لا يزال ضارباً اطنابه والخمول باسطاً رواقه ؛ ولكن هلا قلت لي كيف رأيت هنالك عبدي أيوب ؟ فقال ابليس

— لماذا تعيد ذكرى القديم ايها القدير ؟ الا تزال تفاخرني بهذه الحشرة

— ايوب · اذا سمحت لي وسلمته الى يدي هذه المرة تبصر كيف ينسى تقواه ويجدف عليك ويلعن انبياءك وقديسيك ويسي شريعاً كباقي هؤلاء الناس الذين لا تزال تغدق عليهم من رحمتك وهم لا يستحقونها

فابتسم الرب ابتسامة واثق وقال

— أما جربته مرة واخفقت ؟ فكيف تقدر عليه اليوم فقال ابليس

— اذا تنازل مولاي لمراهنتي عَلَى هذا الامر أريته كيف ينقلب ايوب بشرط ان يطلق يدي في ما افعله · فاجابه العلي

— ليكن ما تشاء · ها هو في يدك ولكن احفظ نفسه · فابتسم ابليس ابتسامة خبث وقال

— ستردك اخبار ايوب عما قريب · ثم ترك السماء ونزل الى مقره في الجحيم يهيء المخطط ويعد المعدات ليرمي ايوب بثالثة الاثافي

. . .

لم يمض وقت قصير حتى تدفقت المصائب عَلَى ايوب وانهالت تباعاً

كان جالساً ذات يوم في صحن داره امام القوارة يدخن نارجيلته ، ويشكر ربه عَلَى مرور يومه بسلام ، واذا برسول اتى يخبره ان الدولة اعلنت الحرب ؛ وان اولاده قد سيقوا الى الجندية · فخاف ايوب عَلَى بنيه من اهوال القتال واسرع الى سراي الحكومة فافتداهم بدفع قيمة باهظة من المال · فخسر اكثر ثروته عَلَى انه لم يشعر بهذه المصيبة الطفيفة بل حمد الله كعادته

وفي اليوم التالي بينما كان ايوب جالساً في دكانه بالسوق الجميل اذا بجندي يدعوه الى مقابلة الوالي · فذهب معه وعلم ان الحكومة تطلب الف ليرة منه مساعدة لاسطولها · فدفع ايوب القيمة صاغراً وخرج ولسانه ينطق بشكر الله ويقول

— الرب يجرب خائفيه

وفي اليوم الثالث صدر امر وزارة الحرب بأخذ الرديف فسيق بنو ايوب للمرة الثانية الى الثكنة العسكرية · فاضطر ايوب ، وقد فرغت خزائنه ، ان يستدين مالاً من اصدقائه ليفتدي بنيه ·

وفي اليوم الرابع اتته فصيلة من الجند يقودها احد اعضاء المجلس العسكري فحجزت على ما في مخزنه من البضائع والمأكولات لان الحكومة بحاجة اليها · واعطته بها وصولاً على قطعة ورق · فخبأ ايوب الورقة بيد مرتجفة وقال — لا بأس · الله اعطى والله أخذ · فليكن اسم الرب مباركاً ·

وفي اليوم الخامس دُعي ايوب الى المجلس العرفي · وهناك بشره الرئيس بان نظارة الحربية عرفت بغيرته على صوالح امته وباستعداده لمساعدتها ففرضت عليه دفع الف ليرة للجيش وانعمت عليه بلقب « بيك » .

فشكر له ايوب ما اغدقه عليه من الشرف وصرّح له بقلب واجف وصوت مرتجف ·

— ولكن يا سيدي لا مال عندي الان · فقد دفعت فكاك بنيّ مرتين فرهنت داري عند اصدقائي ، وبالامس اخذتم كل ما في مخزني · فمن

اين لي المال ؟

— لا نعرف ولا يهمنا يا ايوب بك · وجل ما نعرفه انك غني من وجهاء البلد وعليك ان تقدم المطلوب لحكومتك ، والا فانت تخادعها ·

ولكن ايوب رفض دفع المال · وكيف يدفع وليس له ما يدفعه · فألقي القبض عليه وحوكم في الديوان العرفي فحكم عليه بالسجن المؤبد · وحجزت السلطة داره وامتعته وجردت بنيه وبناته من كل شيء فخرجوا يستعطون في الاسواق · ولما هجم الجوع بخيله ورجله واملق الناس حتى الموسرون اضطرت بناته ان يبعن اشرف واسمى ما عندهن ليتلن كسرة من الخبز ·

اما ايوب فكان مطروحاً في السجن وقد أمسى باوشم حال بعد ان سلبه السجانون ثيابه الحسنة · ولكن ذلك لم يهمه كثيراً ، فشكر الله قائلاً

— عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً اعود

وقضى اشهراً في سجنه متدرعاً بالصبر آسفاً على ما آلت اليه حالته وحالة بنيه وبناته · وكان يفكر ليل نهار — أي ذنب جناه يا ترى حتى استحق غضب الرب ، فافتقده بهذه المصائب ؟ ولكنه كان يعود الى الرضوخ والسكينة حين يتعذر عليه ادراك هذا الامر ويقول

— من انا حتى اخاصم الرب ؟

اما ابليس عدو الصلاح فلم يقف عند هذا الحد : بل كان يهيء لايوب شدائد جديدة ومحناً تهد الجبال الراسيات ، وكان قد اتقن علم الشر وادرك

ان هنالك شيئاً اشد من البرص لتحطيم النفوس الصالحة الراضية .

انتشرت المجاعة في البلاد فقضم الويل الاخضر واليابس واتصلت بايوب اخبار هلاك كثير من شعبه وفيهم اصدقاؤه وانسباؤه فاستقبل سهام هذه المصائب بدرع التصبر وكان ينظر بعينين خاشعتين الى السماء عالماً ان يداً في السماء حكيمة تدبر ما تدبر لخيره وخير شعبه .

على ان يومه العصيب أزف حين تواردت اليه الاخبار تباعاً تنذره باسوأ ما يتوقع فاصبح لا يصدق ما يسمع

— أيوب قد ماتت امرأتك جوعاً بعد ان اكلت التراب

— مسكين يا ايوب ، قد هلك ابناك الاكبران في حملة الدردنيل

— ... اليوم شنقوا ابنك الثالث لفراره من الجندية . وصلبوا الرابع لعصيانه اوامر ضابطه .

— ... حاول بقية ابنائك الهرب الى مصر سباحة فغرقوا

— ... قتل احد الجنود ابنتك الكبرى لانها دافعته عن نفسها

— ... قبض على ابنتك الثانية بعد ان خنقت طفلها لتنقذه من الجوع وماتت الاخرى في بيت الريبة

— ... القت احدى بناتك نفسها في البحر تخلصاً من حياة العار والفاقة

— بيعت بناتك الباقيات في سوق الاماء

كفى ! كفى !

رفع اليأس يده القاسية ولطم كأس الصبر المترعة فاطارها شظايا

واهرق ما فيها عَلَى رمال الويل المحرقه

حرق ايوب الالم عند سماعه هذه الاخبار وحاول ان يتمالك نفسه فلم يستطع — واخيراً جمع يده وهزها في وجه السماء ... وجدَّف

ولم يستطع ان يبكي لان الدموع لا تخفف مصيبته . ولم يقدر ان ينم لان الرزايا ايبست اعصاب جفونه فلم تنطبق

وكان ماضيه السعيد يتراءى له في ليالي ارقه فيرى مصائبه الماضية فيستخف بها بازاء نكبته الحاضرة ويقول

— أفٍ . ان احتمال البرص والجلوس عَلَى المزبلة ، والاحتكاك بشقفة خزف لخير من هذه الحالة الشقية .

وتذكر كلام امرأته حين قالت له في حياته السالفة — جدَّف عَلَى الله ومت . فجدَّف ثم جدَّف ثم جدَّف . ولكنه لم يمت بل ظلَّ حياً في سجنه يقاسي آلام اليأس وعذاب البقاء .

. . .

وكان بعد هذا ان الشيطان مثل امام عرش الله وقال له مبتسماً

— كيف رأيت صنعي بعبدك ايوب ؟

فاكفهر وجه العلي وتجلت في وجهه علائم الحزن العميق والرأفة والاسف ، فقال

— لقد ظفرت ايها الخبيث . كنت اظن ان البرص اشد المصائب البشرية هولاً فاذا به هين بازاء قسوة الانسان عَلَى اخيه الانسان